المجمع 1 (1430/2009) 101-118

التراسل الحسّي في شعر العميان

نادر مصاروة

تلخيص:

غاية بحثنا هذا أن نبين كيف استطاع الشاعر الأعمى أن يستثمر حاستين أو أكثر ليكشف عن مشاعره ويركزها في الاتجاه الذي ينشده، وبذلك تتنوع أساليب التعبير الواحدة في شعره مما يميزه عن الشعراء المبصرين في هذا الجانب الأدبي. فقد كانت الأبحاث التي تناولت التراسل الحسي في شعر العميان تكاد لا تذكر لذا سنحاول أن نتناول في صفحات هذا البحث هذا الجانب الأدبي متوخين من خلاله أن نساهم في تطوير البحث العلمي في هذا المجال. **فالتراسل الحسي** هو وصف حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى "فتعطي المسموعات ألوانا وتصير المشمومات أنغاما، وتصبح المرئيات عاطرة...والأصوات والألوان تنبعث في مجال وجداني. فنقل صفات بعضها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسي كما هو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة. وفي هذا النقل يتجرّد العالم الخارجي من بعض خواصه المعهودة، ليصير فكرة أو شعورا، وذلك أن العالم الحسّي صورة ناقصة لعالم النفس الأغنى والأكمل

ويعطي تراسُل الحواس للشاعر فرصة استثمار إيحاء حاسّتين أو أكثر، وبذلك يكثّف مشاعره ويركّزها في الاتجاه الذي ينشده يُضاف إلى هذا أنّ تراسُل الحواس مما يثري اللغة وينمّيها ضمنا أن ينأى الشاعر عن السياق المألوف للعبارة المعبّرة عن حاسّة ما فينقل إلها مفردات حاسّة أخرى، وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسّة الواحدة، وربّما يلجأ الشاعر إلى التراسُل لأنّ حواسّه "اختلطت بين تحسّس الشعور في النفس وإدراكه في الذهن وأصبح الشاعر يرى الهديل كما يسمعه". وقد يكون التراسل الحسي في البيت الواحد أو أن ينتقل الشاعر من حاسة إلى أخرى من بيت إلى آخر، فنرى بشارا يقول في الغزل، وقد عرف به، نجد أكثر ما يتغنى به من محاسنهنّ الحديث والسمر، فيحبها ويكرر وصفها، ويفتن في تجميلها، والترنم بها.

تمهيد

غاية بحثنا هذا أن نبين كيف استطاع الشاعر الأعمى أن يستثمر حاستين أو أكثر ليكشف عن مشاعره ويركزها في الاتجاه الذي ينشده، وبذلك تتنوع أساليب التعبير الواحدة في شعره مما يميزه عن الشعراء المبصرين في هذا الجانب الأدبي. فقد كانت الأبحاث التي تناولت التراسل الحسي في شعر العميان تكاد لا تذكر لذا سنحاول أن نتناول في صفحات هذا البحث هذا الجانب الأدبي متوخين من خلاله أن نساهم في تطوير البحث العلمي في هذا المجال.

لا شك أن المرء إذا فقد حاسة البصر تدفعه إلى محاولة إثبات وجوده وتأكيد قيمته في المجتمع الذي يعيش فيه اعتمادا على ما يملك من حواس أخرى فيستجمع كل طاقاتها ويكيفها ويتكيّف لها كي يحقق أغراضه اليوميّة والمستوى الاجتماعي الذي يرتضيه. فيحاول جاهدا أن يتغلب على عجزه البصري بحشد طاقات حواسه الباقية لتعويض بعض ما خلفه العمى فتزداد بالفطرة طاقاته الحسيّة من اللمس والسمع والشم والذوق. لذا لنا أن نتساءل إلى أي مدى يستطيع الأعمى أن يستعين بحواسه للتعرف على حقائق ما يحيط به؟.

لقد أجمعت الآراء في البلاغة على الدور الحسّي الذي يؤديه االتشبيه في وصف الأشياء، "فهو يجسد في صورة حسيّة الأفكار المجردة فنتمثلها كأنها موجودة أمامنا"[1]. ولا شكّ أن اهتمام النقاد العرب بالتمثيل في كلامهم على التشبيه كان بدافع التأكيد على الناحية الحسيّة في صورة المشبّه وخاصّة الصورة المرئيّة[2]. فعندما يتمكن التشبيه من "إخراج المعاني الذهنية المجردة إلى صورة حسيّة مرئية يكون قد بلغ ذروته"[3].

والصورة الحسيّة "تترك أثرها في المتلقي فتولد فيه المشاعر والإحساسات المختلفة فعندما نشبه الشيء بالشيء نقصد إلى إثبات الخيال في النفس"[4]. وطبيعة الصورة المثبتة في المشبه به هي التي "تحدد ميولنا تجاه المشبه وذلك لأنها تمثله أمامنا، ودور التشبيه ينحصر في إخراج المشبه وتجسده"[5].

والمكونات الحسيّة في الشعر عامّة وشعر العميان خاصّة عنصر ضروري في القصيدة، وقدرة الشاعر في أنه وجد شيئا من العدم، ولكن قدرته في أنه استطاع أن يكوّن صورة من أشتات وأن يحضر الصلة المؤلّفة إلى ذهنه إحضارا واضحا[6].

---

[1]. البستاني، **الصورة الشعريّة في الكتابة الفنيّة**، ص112.

[2]. **المصدر نفسه**، ص114.

[3]. **المصدر نفسه**، ص114.

[4]. البستاني، **الصورة الشعريّة في الكتابة الفنيّة**، ص114.

[5]. **المصدر نفسه**، ص115.

[6]. **الصورة في شعر الديوانيين**، ص96.

وبما أنّ الحسّ أساس المعرفة، فأنّ المدركات الحسيّة هي المادة المكونة للإبداع، لذلك تساهم العناصر الحسيّة في تشكيل الصورة[7] عند أي شاعر، وتعتبر قاعدة الانطلاق الأساسية. وتتجلى التجربة في مظهر حسّيّ.

---

[7] . انظر مثلا: The Oxford English Dictionary. Vol 5(Article: Image)؛ هلال، محمد غنيمي، **النقد الأدبي الحديث**، نهضة مصر، القاهرة، 1979؛ نصرت، عبد الرحمن، **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**، ص12؛ ساسين، عساف، **الصورة الشعرية**، الفصل الثالث، ص 43–64؛ البطل، علي، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، ص9؛ الولي، محمد، **الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي**، ص209. وحول الصورة ومفهومها نحيل القارئ إلى المصادر التالي حتى يفهم كنهها ومعانيها: ارتأيت أن لا أفصّل في هذه الاختلافات وذلك حتّى لا أخرج عن هدف الدراسة فأحيل القارىء إلى كتاب د. عبد القادر الرباعي: " **الصورة الفنية في النقد الشعري، دراسة في النظرية والتطبيق**"، ص15؛ كامل حسن البصير: "**بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيق**" ؛ محمد غنيمي هلال: " **النقد الأدبي الحديث**"، ص410 وما بعدها. ومصادر أخرى حول مصطلح الصورة الفنية والشعرية انظر:الصائغ، عبد الإله، **الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي**، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1985، **الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، القدامة وتحليل النص**، المركز الثقافي، طب 1، الدار البيضاء، 1997؛ **الصورة الفنية معيارا نقديا**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الأولى، 1987؛ عساف، ساسين، **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت 1982؛ عصفور، جابر احمد، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، دار التنوير، الطبعة الثانية، بيروت 1983؛ العقدة، فتحيّة محمود، **الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى**، دار العلوم، ط1، السعوديّة، 1403هـ؛ الغنيم، ابراهيم عبد الرحمن، **الصورة الفنية في الشعر العربي، مثال ونقد**، الشركة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى،القاهرة 1996؛ فريدمان، نورمان، "الصورة الفنيّة"، ترجمة جابر عصفور، **مجلّة الأديب المعاصر**، عدد مارس 1996؛ مشوح، وليد، **الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996؛ مطلوب، أحمد، **الصورة في شعر الأخطل**، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1985؛ مكنّا، محمد عيسى، **الصورة الفنية في شعر رواد الرابطة القلمية**، رسالة دكتوراه، بإشراف رياض العوابده، جامعة دمشق، 2002؛ المومني، قاسم، "الصورة الشعريّة"، **مجلّة فصول**، مجلّد 7، ع3، 1987؛ ناصف، مصطفى، **الصورة الادبية**، مكتبة مصر، القاهرة 1958؛ نافع، عبد الفتاح، **الصورة في شعر بشار بن برد**، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان 1983؛ نصرت، عبد الرحمن، **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي " في ضوء النقد الحديث** " مكتبة الاقصى، الاردن، عمان 1976؛ اليافي، نعيم حسن،

ويمكن القول بأن المدركات الحسية من بصرية وسمعية وشمية وذوقية ترى وكأنها واحدة أمام الجميع، إلا أنّ تصوير هذه المدركات يرجع بالأساس إلى مدى تفاعل التخيل عند كلّ شاعر وآخر، ويرتبط بالإيحاء الشعوري الذي يفهمه كلّ حسب ما يراه ويحسه. ولا يخفى على الباحث أنه "ينبغي أن نفرق بين التفكير الحسّي والرؤية البصرية للأشياء، أو للشيء المكاني، فبعض الناس يجعل المرئي ممثلا للحس. ولا شك أن المرئي حسي ولكن الصورة الحسية دائما هي الصورة المرئية"[8].

وصحيح أن الكثير من النقاد القدامى ركزوا على الجانب البصري للغة التي تجسد الزخارف المجازية "المعاني" وتصويرها تصويرا حسيا، وكان جمال الصورة المجازية في نظرهم يرتد إلى ما فيها من الإحالة على إدراك البصر أو إخراج ما لا يرى، ومعيار جودة الصورة هو مدى فاعليتها وعمق تأثيرها في الوجدان. فإذا كانت الحواس هي أبواب المشاعر والرسائل الطبيعية للإحساس بالجمال فإن البصر هو أقرب الحواس إلى ذلك ويبدو هذا المعيار بوضوح في قول بعضهم (أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا)[9].

ولكن هذا لا يعني انحصار هذه الزخارف المجازية "المعاني" في هذه الحاسة البصرية، فالإحساس بجمال الأشياء لا يتوقف على البصر فقط، بل على جميع الحواس الأخرى التي تتأثر ما يحيطها من محسوسات مختلفة كالسمعية واللمسية والشمية والذوقية. بل إن كل واحد

"مقال في الصورة الفنيّة"، **الاديب**، 1966، سنة25، ج11، ص7-5؛ **تطور الصورة الفنية في الشعر العربي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1983؛ أبو زيد، علي، **الصورة الفنيّة في شعر دعبل الخزاعي**، طبعة أولى، دار المعارف، 1981؛ البستاني، صبحي، **الصورة الشعرية في الكتابة الفنية**، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، 1986؛ البصير، كامل حسن، **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987؛ البطل، علي، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، دار الاندلس، لبنان، الطبعة الثالثة، 1983؛ البطل، علي، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، دار الاندلس، لبنان، الطبعة الثالثة، 1983؛ الرباعي، عبد القادر، **الصورة الفنيّة في النقد الشعري**، دار العلوم، السعودية، 1405هـ؛ "الصورة في النقد الأوروبي"، **مجلة المعرفة السورية**، العدد 204، دمشق، 1979 وغيرها.

[8]. عز الدين، إسماعيل، **التفسير النفسي للأدب**، ص68.

[9]. طبل، حسن، **المعنى في التراث النقدي**، ص97.

من هذه الأنماط ينقسم إلى أنواع أخرى متعددة فالنمط البصري يمكنه أن ينقسم تبعا لدرجاته اللونية أو درجات الوضوح. والنمط اللمسي يمكن أن ينقسم تبعا لدرجات الحرارة والبرودة والخشونة والملامسة، أو اللين والصلابة، ويقال كذلك أن الشعراء يختلفون فيما بينهم من حيث قدراتهم على التخيل مما قد يؤدي ببعضهم إلى الإلحاح على نمط معين من أنماط الصورة. وقد اهتمّ نقاد الشعر بتصنيف صور الشعراء والمقارنة بينهم من هذه الناحية، فقالوا إن صور الشاعر الفلاني في أغلبها صور سمعية أو لمسية أو بصرية[10].وقد اهتمّ أيضا الفلاسفة العرب بالتقديم الحسّي للصورة أو للتصوير في الشعر فابن سينا وابن رشد كلّ منهما، بأن المحاكاة إما أن تكون محاكاة أشياء محسوسة بأشياء أخرى محسوسة وإما أن تكون محاكاة أشياء معنوية بأشياء محسوسة، ويلحان على الجانب البصري من الحسّي، حتى أنهما يجعلان براعة المحاكاة في أن يقدّم الشيء محسوسا للعين كأنّك تراه[11].

ونشير في هذا المجال إلى أنّه من الضروري عند الحكم على الصور الحسيّة الانتباه إلى أمرين:

الأول: الجذور النفسية التي أسهمت في خلق الصورة.

الثاني: مادة الصورة التي تشكلت منها.

أما الجذور النفسية، فترجع أهميتها إلى أنها تسهم في الكشف عن ذوق الشاعر الفني، وتعطي تفسيرا لاهتمامه بصور دون أخرى. وأما مادة الصورة فتعتبر من العناصر المعيارية في الحكم على الصور، لأن مادة الصورة البصرية ليست من قبيل مادة الصورة السمعية وهكذا. فتباين المواد الصورية، يعطي تباينا في أنماط الصور الحسيّة ومدلولاتها الفنية. كما أن التوقيت الذي صيغت فيه الصورة والموقف الذي وردت فيه يؤثران تأثيرا بينا في بنية تشكيلها الفني.

وهناك نوع من الصور يتفق في الدلالة والرمز، ولكنه يختلف في المادة الصورية والإحساس الذي يصدر عنه. لذلك يقع الناقد في الخطأ عندما لا يفرق بين هذه الصور لاتفاقها في الدلالة والرمز[12].

---

[10]. عصفور، جابر، **الصورة الفنية**، ص310.

[11]. الروبي، الفة كمال، **نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)**، ص226.

[12]. الروبي، الفة كمال، **نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)**، ص227.

ويتبين من آراء الفلاسفة أنه لا يمكن "إدراك الحقائق أو الأشياء النظرية أو العملية إلا متخيلة، والتشبيه والاستعارة بوصفهما نتاجا تخيليا وتخييليا يصدران عن المخيلة التي تستند في عملها على الحسّ فلا تعمل بدونه مهما كانت قدرتها على التجربة أو الابتكار. ومن هنا يصبح كل من التشبيه والاستعارة صورة من صور إعادة تشكيل مدركات الحسّ إما على سبيل المشابهة أو المخالفة. ولهذا عدّ التصوير في الشعر بسبب اعتماد الحسّ أساسا خير وسيلة لتقريب الأفكار والمعاني عن طريق المقارنة أو الإبدال أي عن طريق المثل أو النظير أو البديل كما هو الحال في التشبيه والاستعارة"[13].

فتوفر الخاصّة الحسية في التصوير الشعري يعين على تقريب الشيء البعيد عن الحسّ حتى ولو كان حسيا عقليا.

وعلى ضوء ما قدمناه من تمهيد حول الصورة والتشبيه والمعاني نبين كيف يتأتى "التراسل" أو "التزامن " الحسّي لدى الشاعر الأعمى لذا نقدم له بتعريف حتى يتسنى لنا فهم تلك الإمكانات الحسيّة التي جندها الشاعر الأعمى للتعبير عن مشاعره المختلفة.

فالتراسل الحسي هو وصف حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى "فتعطي المسموعات ألوانا وتصير المشمومات أنغاما، وتصبح المرئيات عاطرة... والأصوات والألوان تنبعث في مجال وجداني، فنقل صفات بعضها إلى بعض يساعد على نقل الأثر النفسي كما هو قريب مما هو، وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلى نقل الأحاسيس الدقيقة. وفي هذا النقل يتجرّد العالم الخارجي من بعض خواصه المعهودة، ليصير فكرة أو شعورا، وذلك أن العالم الحسّي صورة ناقصة لعالم النفس الأغنى والأكمل"[14].

ويعطي تراسُل الحواس للشاعر فرصة استثمار إيحاء حاسّتين أو أكثر، وبذلك يكثّف مشاعره ويركّزها في الاتجاه الذي ينشده يُضاف إلى هذا أنّ تراسُل الحواس مما يثري اللغة وينمّيها ضمنا أن ينأى الشاعر عن السياق المألوف للعبارة المعبّرة عن حاسّة ما فينقل إلها مفردات حاسّة أخرى، وبذلك تتنوع أساليب التعبير عن الحاسّة الواحدة[15]، وربّما يلجأ الشاعر إلى التراسُل

---

[13]. **المصدر نفسه**، ص227.

[14]. هلال، **النقد الأدبي الحديث**، ص418.

[15]. الصائغ، وجدان، **الصورة البيانية**، ص136.

لأنّ حواسّه "اختلطت بين تحسّس الشعور في النفس وإدراكه في الذهن وأصبح الشاعر يرى الهديل كما يسمعه"[16]. وقد يكون التراسل الحسي في البيت الواحد أو أن ينتقل الشاعر من حاسة إلى أخرى من بيت إلى آخر، فنرى بشارا يقول في الغزل، وقد عرف به، نجد أكثر ما يتغنى به من محاسنهنّ الحديث والسمر، فيحبها ويكرر وصفها، ويفتن في تجميلها، والترنم بها، فيقول:

ودعجاء المحاجر من معدّ كأنّ حديثها ثمر الجِنان[17]

يصفها بأنها حوراء العينين من قبيلة معد، ذات منطق جذاب ولذيذ كأنه ثمر البستان.

فالتراسل في هذا البيت:

دعجاء المحاجر = حاسة بصريّة ⟷ كأنّ حديثها = حاسة سمعيّة.

ثمر الجنان = حاسة بصرية و ذوقية[18].

وحديث كأنه قطع الروض زهته الصفراء والحمراء[19]

حديثها يفتن الألباب، كما تُفتن العيون بمنظر الرياض وقد كستها أزهار النرجس وشقائق النعمان.

حديث = ح. س ⟷ كأنه قطع الرياض = ح. ب ⟷ زهته الصفراء والحمراء = ح. ب. فمعادلة هذا التراسل هي = سمعي ⟵ بصري ⟵ بصري.

وقول بشار:

يُساقطنَ للزير الموكّل بالصِّبا حديثًا كوشي البُرْد يَغرين في الورد[20]

---

[16] . الحاوي، إيليا، **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، ص103

[17] . بشار، **الديوان** 527/2 البيت المرقم 5 من القصيدة رقم 577. الدعج: شدة السواد في العين مع اتساعها. المحاجر: العيون وكذلك المدامع لأنها موضع الدمع.

[18] . نرمز لكل من هذه المصطلحات بما يلي: حاسة بصرية = ح.ب/ حاسة سمعية = ح.س/ حاسة ذوقية = ح. ذ/ حاسة شمية = ح. ش / حاسة لمسيّة = ح. ل.

[19] . بشار، **الديوان** 58/1 البيت المرقم 6 من القصيدة رقم 5. زهته: زانته وجمّلته. الصفراء: النرجس. الحمراء: شقائق النعمان.

[20] .بشار، **الديوان**، 69/2 البيت المرقم 4 من القصيدة رقم237. الزير: الرجل الذي يكثر الزيارات للنساء.

كن يتحدثن لذلك الرجل الذي يكثر من زياراته إليهن أحاديث تشبه وشي البرد.

يساقطن للزير حديثا = ح.س ◄——► كوشي البرد = ح. ب

وكـــأنّ رجـــع حـــديثها قطـــعُ الريـــاض كُـــسين زهـــرا

وكـــأنّ تحـــت لـــسانها هـــاروت ينفـــث فيـــه ســـحرا[21]

شبه جوابها بإرجاع شيء مأخوذ، فهو كأنه قطع من الرياض في حسن منظرها، قد زاد تلك الرياض جمالا ظهور الزهر فوقها، وشبه تأثير كلامها في نفس سامعها بتأثير سحر هـاروت وهـو ينفث في العقد لمعالجة السحر.

كأنّ رجع حديثها =ح.س ◄——► قطع الرياض كسين زهرا = ح.ب

كأنّ تحت لسانها هاروت = ح. ب ◄——► ينفث فيه سحرا = ح.ب و ح. س. فالمعادلـة التراسلية: سمعي ◄—— بصري ◄—— بصري ◄—— بصري.

وفي صورة أخرى لفتاة يصفها وصفا دقيقا يقول:

وجاريـــــة دلّهـــــا رائـــــع تعـــفّ فـــإن ســـامحت تمـــزح

كـــأنّ القـــرون علـــى متنهـــا أســـاود شـــتّ بهـــا أبطـــح

لهـــا منطـــق فـــاخر فـــاتنٌ كحلْـــي العـــرائس يُـــستملح

وعينـــان يجـــري الـــردى فيهمـــا ووجـــهٌ يـــصلي لـــه أســـجع

وثـــديٌ لرؤيتـــه ســـجدة يـــدينُ لهـــا الناســـك الأجلـــح

وثغـر لرؤيتـه إذا ذقتـه لـن تمـت وطـــاب لـــك العـــيش والمـــسرح

وخـــدّ أســـيل وكـــفّ إذا أشـــارت لقـــوم بهـــا ســـبحوا

وســـاق تـــزين خلخالهـــا علـــى أنهـــا صـــعبة تـــرمح

وتـــضحك عـــن بـــرد بـــارد تـــلالا كمـــا لمـــع الوحْـــوحُ

[21] . بشار، **الديوان** 2/394–395 البيت المرقم 4 ص394 والبيت المرقم 1 ص395 من القصيدة رقم 378. رجع حديثها: صدى الصوت. هاروت: من كبار سحرة بابل.

مبتّلـــــة فخمـــــة فعمـــــةٌ هـضيم الكـشح بوصُـها أرجـح[22]

ووصف الخد بأنه أسيل، ووصف الثغر بالحلاوة، والحديث عن دقّة الساق ولمعان الأسنان وشدة بياضها والإعجاب بالمرأة الضخمة. كلّها تشير إلى التراسل الحسي فالقرون/ العينان/ الوجهُ/ الثديُ/ الثغر/ والخد/ الساق التي تزين خلخالها/ والبرد الذي تضحك عنه /وكشحها الفخم الفعم / وردفيها المهتزّان ⟵ حاسّة بصريّة ⟵ لها نطق (كلام) فاخر فاتن ⟵ سمعيّة ⟵ خدّ أسيل ⟵ لمسيّة.

ونلاحظ من التراسل الحسي عند المعري في ديوانه سقط الزند قوله وهو يصف ليلة زفاف ممدوحه. وقد أسبغ على تلك الليلة ضروب الوصف من ألوان المشمومات، والصور فيقول:

للطيـــب في حندســـها اســـورةٌ نـــاخر البـــدر بـــه تُفعـــم
مـضمخا ينظـر في الأرض ريـح لـه كـــأّن مـــسكا لونـــه الأســـحم
وانتـــشرت في الأرض ريـــح لـــه يـــسوفها المُنجِـــرُ والمُـــتهم
عطـــرٌ لمـــن شـــمّ ولكنـــه غـــيرُ الـــذي جـــاءت بـــه مَنـــشِم
وانتـــشقت عرفـــك طـــيرُ لـــه فـــزارك الناشـــيء والقـــشعم[23]

رائحة الطيب في حندسها = ح .ش ⟵ مناخر البدر تُفعم = ح.ب.

---

[22] . بشار، **الديوان** 465/1 – 466 الأبيات المرقمة 4–6 ص465 و الأبيات المرقمة1–8 ص 466 من القصيدة رقم 186. الدل: الغنج والدلال. القرون: قصد بها جدائل الشعر. الأساود: ذكر الحية.متنها: كتفها. شتّ: تاه. الأبطح: الأرض المنخفضة، وهو المسيل الواسع فيه دقاق الحصى والجمع (الأباطح). المنطق: الكلام. الأسجح الحسن المعتدل. الناسك الأجلح: الناسك الأصلح. ترمح: من الرمح وهو الحرون والدفع من الدابة. البرد: الأسنان. البارد: الفم العذب. الوحوح: وسط الوادي. المبتّلة: العذراءالجميلة. المفعمة: الممتلئة الجسم. هضيم الكشح: دقيقة الخصر. البوص: العجيزة والردفين. الأرجح: المهتزّ.

[23] . المعري، **شروح سقط الزند**، الأبيات المرقمة 22 و24 – 26 من القصيدة 37، ص854– 859. السورة: الوثبة والعلو، والضمير في مضمخا يعود على الليل. تُفعم: تملأ. عطفه: جانبه. الأسحم: الأسود. يسوفها: يشمها. المنجر والمتهم: الآتي نجد أو تهامة. مَنشم: امرأة كانت تبيع العطر فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا فقتلوا عن آخرهم فتشاءمت بها العرب. انتشق: تشممت. الناشي والقشمعم: الفرخ والمسن.

مضمخا ريح له = ح .ش ⟵ كأن مسكا لونه الأسحم = ح .ب.

انتشرت في الأرض ريح = ح .ش ⟵ المنجر والمُتهم = ح .ب انتشقت عرفك طير له = ح. ش ⟵ زارك الناشيء والقشعم = ح .ب فالمعادلة التراسلية في الأبيات : شمي ⟵ بصري ⟵ شمي ⟵ بصري ⟵ شمي.

وقد تجتمع أكثر من حاسة لتقدم لنا صورة يريدها الشاعر، فيصور المعري حال المرء الذي يتكلم بألفاظ سهلة لينة، يقول:

يلقاكَ بالماءِ النّمير الفتى وفي ضمير النفس نارٌ تَقدْ

يعطيك لفظا ليّنا مسّه ومثل حد السيف ما يعتقدْ[24]

فقد جمع المعري حاستين لرسم صورة ذلك المرء الذي يحذرنا منه، حاسة السمع وحاسة اللمس، إذ جعل سماع حديثه طريا لينا وكأنما تحولت الأذن إلى حاسة لمسية دقيقة الحس بحيث إن الصوت باتت له ماهية كماهية الأشياء وجعل البغض والكراهية قاتلة قوية حادة كطرف السيف البتار.

ويستعين بشار بثلاث حواس لرسم صورة واحدة، يقول:

وما ذقت طعم النوم مذ مسّني الهوى ولا الكأسَ، إلا ماؤها عبَراتي

ودارت صبابات الهوى بمسامعي كما دار مخمورٌ من النّشوات[25]

ما عرفت الرقاد ولا لذة الشراب إلا والدموع تملأ الكؤوس، ومردّ ذلك شدّة العشق والهوى. فاختلاط الحواس هنا ليس سببه الاضطراب عند الشاعر وإنما ليكشف عن جمال خفي، وصورة هذا التراسل هي:

ذقت طعم النوم = ح .ذ ⟵ مسّنى الهوى = ح . ل ⟵ دارت صبابات الهوى بمسامعي = ح .س إذا : ذوقي ⟵ لمسي ⟵ سمعي.

وتتكرر صورة تمازج الحواس كاللمس والذوق عند بشار فيقول:

---

[24] . المعري، **اللزوميات** 401/1.

[25] . بشار، **الديوان** 420/1 البيتان المرقما 4 و5 من القصيدة رقم 162. الصبابات: شدة الشوق.

وصـــاحبٍ ضـــامني وضُـــمت لـــه نفـــسي ليرضـــى فـــراح يلتهـــبُ

وافـــق ظلمـــي حلـــوا فأعجبـــه والظلـــم حلـــوٌ كأنـــه جـــرب[26]

رب صاحب ظلمني وظلمته فراح غاضبا، وإن ظلم هذا الصاحب العادل حلو لدى العاشق وفيه ضرر كحلاوة حكة الجرب. فقد جعل العاشق يتلذذ بظلم العاذل، ويجد فيه حلاوة رغم قساوته.

العاشق يتلذذ بظلم العاذل = ح .ذ ◄——► والظلم حلو كأنه جرب يحكه الأجرب ليسعد بحكه رغم مرارتها = ح . ل. ذوقي ——◄ لمسي.

أما ربيعة الرقّي فقد تزامنت لديه ثلاث حواس معا وهي البصر واللمس والشم، فيقول:

لَـــن ضـــوءُ نـــارِ أعـــينَ الركـــب تـــشبّ بلـــدْن العـــود والمنـــدل الرّطـــب

فقلـــتُ لقـــد آنـــست نـــارا كأنهـــا صفا كوكب لاحـت فحـنّ لهـا قلـبي[27]

ضوء نار أعين الركب = ح. ب ◄——► لـدْن العـود = ح. ل ◄——► المنـدل الرطـب = ح . ش ◄——► آنست نارا = ح . ب. بصرية ——◄ لمسّية ——◄ بصرية.

وتعني هذه التراكيب الحسية التي قد تكون نتاج حاسة أو مجموعة من الحواس، أنها تريد أن تنقل إدراكا جماليا، قد يكون هدفها التعويض عن الحاسة الأساسية ألا وهي البصر. فعندما يصف بشار محبوبته يبرز لنا صفاتها المختلفة من خلال الحس، فكأنه يشدنا لأن ننظر لمحبوبته بعين الإعجاب، فيشد أسماعنا لنسمع معه حديثها، ويدعونا لنتحسس نعومة جلدها، ويدفعنا لنشم طيبها معه، ونتذوق ريقها العذب فيقول:

للّه درّ فتـــاة مـــن بـــني جـــشم مـــا أحـــسن العـــينَ والخـــدّين والنابـــا

تريـــك في القـــول جـــشّابا وإن أرتـــك مـــن ثغرهـــا المثلـــوج جـــشّابا

بـدا لنـا منظـرٌ منهـا اعتـبرتُ بـه وشاهدُ المسك يلقى الأنف ما غابا

كأنمـا خُلقـت مـن جلـد لؤلـؤة نفـساً مـن العطـر إن حركتهـا ثابـا

---

[26] . بشار، **الديوان** 1/139–140 البيت المرقم 8 ص 139 والبيت المرقم1 من القصيدة رقم 36. 140. ضامني: أذاني وظلمني. الجرب: مرض يصيب الجلد يسبب الحكة الشديدة مع اللذة.

[27] . الرقي، ربيعة، **الديوان**، ص35.

يطيبُ مسواكها من طيب ريقتها وإن ألمّ بجلد جلدها طابا

والله أنساكِ يا أسماءُ ما طرفتْ عيني وما قرقر القمريّ إطرابا[28]

شبه ثغرها وكلامها الذي تنطق به في الحسن والانتساب بقطر الندى، وإنّ رائحة مسكها تبقى في الأنف زمنا طويلا حتى يكاد لا يغيب عنه، فهي العطر نفسه، تنفح منها رائحته أينما كانت، وكيفما تحركت، ويزداد سواكها طيبا من طيب ريقتها، واي شيء يلامسها يزداد جمالا ونضارة. وصورة هذه اللوحة هي:

ما أحسن العين والخدين والنابا = ح.ب ◄——► شاهد المسك يلقى الأنف ما غابا = ح .ش

خلقت من جلد لؤلؤة = ح .ل ◄——► نفسا من العطر = ح .ش ◄——► يطيب مسواكها

من طيب ريقتها = ح. ذ ◄——► وإن ألمّ بجلد جلدها = ح . ل ——► ما قرقر قمري =

ح. س. فالصورة التراسلية للحواس: بصري ——► شمي ——► لمسي ——► شمي

ذوقي ——► لمسي ——► سمعي.

أما وسيلة التذوق عند بشار فهو يمزجها بحواس أخرى، إذ تجلت في غزله المادي بشكل خاص. ففي هذا الغزل يقدم بشار وصفا لعطش رضاب الحبيبة وثغرها إذ يقول مثلا:

فلست بناس من رُضابك مشربا وقد حان من شمي النهار غروب[29]

أهديت لي الطيب في ريحان يا (عبد) ريقك أشهى لي من

وثغرك بارد عذبٌ جرى فيه الأعاجيب[30][31]

أرى سقمي يزداد من أم مالك ولو ذقت يوما ريقها لبَريت[32]

كأنّ بريقها عسلا جنيا وطعم الزنجبيل وريح وراح[33]

---

[28] . بشار، **الديوان** 1/160-161 الأبيات المرقمة 3- 5 ص160 والأبيات المرقم 1 و2 ص161 من القصيدة رقم 46. الجشّاب: الندى الشبيه بالمطر الذي يتساقط صباحا.

[29] . بشار، **الديوان** 1/128 البيت المرقم4 من القصيدة رقم 33.

[30] . بشار، **الديوان** 1/145 البيت رقم 3 من القصيدة رقم 39.

[31] . بشار، **الديوان** 1/155. البيت رقم 3 من القصيدة رقم 44.

[32] . بشار، **الديوان** 1/406 البيت المرقم 5 من القصيدة رقم 155. أم مالك: محبوبته عبدة. بريت: شفيت.

ورضـاب ذي أشـر أغـلاّ كأنمـا عُبقـت مـشاربه مـن التفـاح[34]

ضحكت لي عن بارد الطعم عذب مـستنير كـالكوب الوقـاد[35]

ما زال ريق الحبيبة مؤثرا رغم مغيب النهار، وقد قدمت له من ريقها رائحة طيبة أسحرته وهو أشهى من رائحة الطيب، وثغرها عذب ولو ذاق منه لشفي من سقامه، وكأن لعابها فيه عسل، يمازجه طعم الزنجبيل والخمر، وريق ذلك الثغر الجميل أغرّ، كأنه شراب التفاح، وحين تضحك فهي تفتر عن ثغر أسنانه بيضاء تلمع كالكوكب. إذا لاحظنا كيف تمازجت الحواس المختلفة عند بشار في صورة جميلة مركبة:

الرضاب مشرب = ح.ذ ⟷ حان شمس من النهار غروب = ح.ب ⟵ الطيب في ريحان ساحرة = ح.ش ⟵ ريقك أشهى من الطيب = ح. ذ/ش ⟵ ثغر بارد عذب = ح.ذ/ل ⟵ ذقت ريقها = ح. ذ ⟵ كأنّ بريقها عسل وطعم الزنجبيل = ح. ذ ريح وراح = ح. ش/ذ ⟵ رضاب = ح. ذ ⟵ أشر أغرّ = ح. ب ⟵ عُبقت مشاربه = ح.ش/ذ ⟵ ضحكت = ح.ب/س ⟵ بارد الطعم عذب = ح. ذ. ⟵ مستنير كالكوب = ح.ب. فالصورة التراسلية:

ذوقي ⟵ بصري ⟵ شمي ⟵[2] ذوقي ⟵[5] بصري ⟵ شمي ⟵ بصري ذوقي ⟵ بصري.

وينشد شافع بن علي[36] مازجا حاستي البصر والذوق قائلا:

---

[33] . بشار، **الديوان** 470/1 البيت المرقم 8 من القصيدة رقم 187. الزنجبيل: كلمة فارسية، وهو اسم نبات من فصيلة القصب والبردي، أوراقه عريضة، تفترش على الأرض وليس له زهر، والعرب يمضغونه، وينقعونه في الماء لطيب طعمه.

[34] . بشار، **الديوان** 472/1 البيت المرقم 6 من القصيدة رقم 188. ذو الأشر: ذو الفم الرقيق الأسنان، وهي من الصفات التي تؤكد الحسن في الثغر.

[35] . بشار، **الديوان** 523/1 البيت المرقم 6 من القصيدة رقم 211.

[36] . هو شافع بن علي الكناني العسقلاني (ت 730هـ/1352م)، كنيته ناصر الدين، كاتب مؤرخ وشاعر مجيد، له تصانيف منها: ديوان شعره، سيرة الناصر، سيرة الأشرف خليل، ما يشرح الصدور في أخبار عكا وصور (انظر: الصفدي، **نكت الهميان**، ص136؛ الكتبي، **فوات الوفيات** 93/2).

شكا لي صديقٌ حبّ سوداء بمص لسان قد تم من إحراقها[37]

ومحمد بن جابر الأندلسي[38]، ما يمزج به حاستي السمع والذوق وبصر يقول:

إنشاد نظمك اشهى عند سامعه من نظم غيرك لو إسحاق غنّاه

نظم ونثر يهزّ السامعين له لو صيغ للدرّ حليٌ كان إياه[39]

أما التعاويذي فله أيضا تتزامن الحواس المختلفة في كثير من أشعاره نذكر منها:

يذكي الجوى بارد من ريقه شيمٌ ويوقظ الطرف طرف منه وسنان

إن يُمس ريّان من ماء الشباب فلي قلب إلى ريقه المعسول ظمآن[40]

فالصورة التراسلية: ذوقي ⟵ بصري ⟵ ذوقي.

وتتردد كثيرا رائحة القرنفل والمسك والريحان والعطور والأذواق في شعر الأعمى التطيلي منها قوله يجمع بين حاستي الذوق والشم:

أتتك قوافي الشعر: أمّا مذاقها فشهدٌ، وأمّا نشرها فقرنفل[41]

وفي أبيات أبي القاسم الأسدي[42] تزامنت الحواس، كالحاسة الذوقية والشمية والبصرية، وأخذت شكلا مجازيا يظهر جمالية الموصوف فيقول:

---

[37] . الصفدي، **نكت الهميان**، ص138.

[38] . هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري (ت780هـ/1378م)، أعمى، ولد بالمرية من أعمال الأندلس ونشأ فيها طالبا العلم، كان كثر النظم جيد الشعر، رقيق المعاني، وكان له نثر بديع، من كتبه: شرح ألفية ابن مالك وشرح ألفية ابن معطي ونظم فصيح ثعلب وغيرها (انظر: السيوطي، **بغية الوعاة** 34/1؛ المقري، **نفح الطيب** 668/2؛ الصفدي، **نكت الهميان**، ص209؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون** 152/1؛ البستاني، **دائرة المعارف** 396/2؛ الزركلي، **الأعلام** 328/5).

[39] . الصفدي، **نكت الهميان**، ص210.

[40] . التعاويذي، **الديوان**، البيتان المرقمان 12–13 ص413 من القصيدة رقم 267.

[41] . التطيلي، **الديوان**، ص129.

[42] . هو عبد الرحمن بن يحيى الأسدي الكفيف (ت 681هـ)، كنيته أبو القاسم ويعرف بابن الخواص الكفيف (انظر: الصفدي، **نكت الهميان**،ص 159؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات** 303/18).

أراك عيني كحيل الطّرف ذي حور ظـبي خــلا أنــه ظـبي مــن البــشر
أغنــى مــن الغـصن قـدّا بـالقوام كمـا أغنـــى بغرّتـــه عـــن طلعـــة القمـــر
يفـترّ عــن أشــنب عــذب مراشــفه كالمــسك نكهتــه في ســاعة الــسحر
مستملح الدلّ حلو الشكل مـا نظـرت إليه عين فلـم تفتـن مـن الـنـظـر
جرى هواه مجاري الروح في جـسدي وحــلّ مــني محــل الــسمع والبـصر[43]

نخلص إلى النتيجة إلى أنّ تركيب الصور الحسية عند الشعراء العميان قد يكون نتاج حاسة أو مجموعة حواس، تتواكب لتنقل إدراكا جماليا، قد يجد فيها مجتمعة تعويضا عن الحاسة الأم، وقد سمى وليك ووارين صاحبا "نظرية الأدب" هذا التمازج " بالتزامن الحسي" ويريد أن يربط به الإدراكات الحسيّة الناشئة عن إحساسين أو أكثر. وعللا ذلك بقولهم: " إن هذه الخاصّة تعد من الناحية الفزيولوجية من مخلفات مرحلة سابقة كان فيها الجهاز الحسي للإنسان غير قادر نسبيا على التفريق بين الإحساسات. وعلى أي حال فغالبا ما يكون "التزامن الحسي" تقنية أدبية، شكلا من التحول المجازي،أو هو التعبير الأسلوبي عن اتجاه ميتافيزيقي جمالي نحو الحياة[44]".

[43] . الصفدي، **نكت الهميان**، ص160.

[44] . وليك ووارين، **نظرية الأدب**، ص86.

المراجع:

- ابن برد، بشار. **الديوان**. شرح حسين حموي. ط1. بيروت: دار الجيل، 1996.

- أبو زيد، علي. **الصورة الفنيّة في شعر دعبل الخزاعي**. ط1. [د.م]: دار المعارف، 1981.

- الروبي، الفت كمال. **نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)**. ط1. بيروت: دار التنوير، 1983.

- البستاني، صبحي. **الصورة الشعرية في الكتابة الفنية**. ط1. بيروت: دار الفكر اللبناني، 1986.

- البصير، كامل حسن. **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**. بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1987.

- البطليموسي والخوارزمي. **شروح سقط الزند**. تحقيق مصطفى السقا. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1964.

- البطل، علي. **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**. ط3. لبنان: دار الأندلس، 1983.

- التعاويذي، سبط ابن. **ديوان التعاويذي**. نسخ وتصحيح: س. مارجليوث. مصر: [د.ن]، 1903.

- الجرجاني، عبد القاهر. **أسرار البلاغة**. ط1. شرح وتعليق وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف. بيروت: دار الجيل، 1991.

- الحاوي، إيليا. **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**. ط2. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1976.

- عساف، ساسين. **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982.

- الصائغ، عبد الإله. **الصورة الفنية في شعر الشريف الرضي**. بغداد: مطبعة دار الشؤون الثقافية، 1985.

الصائغ، عبد الإله. **الصورة الفنية معيارا نقديا**. ط1. بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1987.

ـ الصائغ، عبد الإله. **الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، القدامة وتحليل النص**. ط1. الدار البيضاء: المركز الثقافي، 1997.

ـ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. **نكت الهميان في نكت العميان**. القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، د.ت.

ـ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. **الوافي بالوفيات**. اعتناء هلموت رستر، وآخرون. شتوتغارد: دار فرانز شتاينر، 1962.

ـ طبل، حسن. **المعنى الشعري في التراث النقدي**. ط2. القاهرة: دار الفكر العربي، 1998.

ـ الرباعي، عبد القادر. **الصورة الفنيّة في النقد الشعري**. السعودية: دار العلوم، 1405هـ.

ـ الرباعي، عبد القادر. "الصورة في النقد الأوروبي." **مجلة المعرفة السورية** 204 (1979).

ـ الرقي، ربيعة بن ثابت. **الديوان**. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1980.

ـ عصفور، جابر احمد. **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**. ط2. بيروت: دار التنوير، 1983.

ـ الغنيم، إبراهيم عبد الرحمن. **الصورة الفنية في الشعر العربي: مثال ونقد**. ط1. القاهرة: الشركة العربية للنشر والتوزيع، 1996.

ـ فريدمان، نورمان، "الصورة الفنيّة."، ترجمة جابر عصفور، **مجلّة الأديب المعاصر** (مارس 1996).

ـ عز الدين، إسماعيل. **التفسير النفسي للأدب**. القاهرة: دار المعارف، 1963.

ـ عساف، ساسين. **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1982.

ـ العقدة، فتحيّة محمود. **الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى**. ط1. [د.م]: دار العلوم، 1403هـ.

ـ مشوح، وليد. **الصورة الشعرية عند عبد الله البردوني**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1996.

ـ مطلوب، أحمد. **الصورة في شعر الأخطل**. عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1985.

ـ مكنّا، محمد عيسى. **الصورة الفنية في شعر رواد الرابطة القلمية**. رسالة دكتوراه. دمشق: جامعة دمشق، 2002.

ـ المومني، قاسم. "الصورة الشعريّة."، **مجلّة فصول** مجلّد 7 ع3 (1987).

ـ ناصف، مصطفى. **الصورة الأدبية**. القاهرة: مكتبة مصر، 1958.

ـ نافع، عبد الفتاح. **الصورة في شعر بشار بن برد**. عمان: دار الفكر للنشر والتوزيع، 1983.

ـ نصرت، عبد الرحمن. **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي " في ضوء النقد الحديث "**. عمان: مكتبة الأقصى، 1976.

ـ هلال، محمد غنيمي. **النقد الأدبي الحديث**. القاهرة: نهضة مصر، 1979.

ـ الوالي، محمد. **الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي**. ط1. الدار البيضاء: [د.ن] ، 1990.

ـ اليافي، نعيم حسن. "مقال في الصورة الفنيّة"، **الأديب** سنة25 ج11 (1966).

ـ اليافي، نعيم حسن. **تطور الصورة الفنية في الشعر العربي**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1983.

The Oxford English Dictionary. Vol 5 (Article: Image).